خطاب السلطة في ديوان "من مذكرات حاكم عربي في طريق التوبة" لصلاح الدين باوية قراءة موضوعاتية فنية

The Authority Speech in Diwan The memories of an Arab ruler on the path to repentence By Salahddine Baouya. An Artistic Thematic Study

نعيمة بلي*

جامعة محمد الصديق بن يحي_جيجل، (الجزائر)

naima.belli@univ-jijel.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/11 تاريخ القبول: 2024/11/29

تاريخ النشر: 2024/12/10

ملخص:

إن الوعي بالكتابة الإبداعية عموما والشعرية خصوصا، ينبع من عمق الشعور وصدق التجارب المعاشة من طرف الشعراء، وكذا قدرتهم على تشخيص الواقع الكائن مع تقديم رؤيا ممكنة، فيختار بذلك الشاعر لقصائده آليات تشكيلية فنية تساهم في إبراز مختلف الخطابات الأيديولوجية والثقافية والسياسية، ولعل من الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين استطاعوا رصد الأوضاع السياسية في البلاد العربية وكشف الحقائق، الشاعر "صلاح الدين باوية" في دواوينه التي كشفت حالة الشعوب العربية المقهورة مع الحكام الطواغيت، من بينها قصيدة الديوان "من مذكرات حاكم عربي في طريق التوبة" والتي اخترناها نموذجا لهذا البحث، حيث نهدف من خلاله إلى الكشف عن تمظهرات خطاب السلطة في النموذج المختار، مع ما اصطفاه الشاعر من آليات أسلوبية للتعبير عن الرؤى الأيديولوجية.

الكلمات المفتاحية: خطاب؛ سلطة؛ شعر؛ سياسة؛ صلاح الدين باوية.

Abstract :

The awareness of creative writing in general and poetry in particular comes from deep feeling and truthful experience of the poets, and their ability to examine the reality to provide a possible vision. So that, the poet chooses for his poems artistic and formative mzchanisms that helps to highlight different ideological, cultural, and political speeches. Perhaps « Salah Eddine Baouia » is one of modern Algerian poets who could monitor the political situation in the Arab countries and reveal the facts in his diwans which exposed the miserable state of the Arabian people against tyrant and harsh rulers. Among the mis the diwan poem: « from the memories of an Arab ruler seeking repentance ». We will reveal the aspects of the authority speech in which the poet has chosen as stylistic mechanisms for expressing ideological visions.

KeyWords: Speech; authority; poem; politic; Salah Eddine Baouia.

*نعيمة بلي

مقدمة:

لعل من السمات التي تميز النص الإبداعي الجزائري الحديث والمعاصر، على مستوى المتن والتشكيل الفني، تعبيره عن الواقع ومواكبته للأحداث التاريخية الكبرى التي تواجه البلاد، وكذلك كان الشعر منذ فجر النهضة مرتبطا بفعل المقاومة المسلحة والثقافية على السواء في ظل الاحتلال الأجنبي، كما نلفيه بعد الاستقلال يقاوم السلطة ليس فقط محليا بل قوميا/عربيا، نتيجة لهذه المواكبة استحدث نصوصا شعرية تعرج في فضاءات السلطة ودهاليز السياسة، فأنتج خطابا سياسيا يعري الواقع المزري للمجتمعات العربية.

والوعي بالكتابة الإبداعية عموما والشعرية خصوصا، ينبع من عمق الشعور وصدق التجارب المعاشة من طرف الشعراء، وكذا قدرتهم على تشخيص الواقع الكائن مع تقديم رؤيا ممكنة، فيختار بذلك الشاعر لقصائده آليات تشكيلية فنية تساهم في إبراز مختلف الخطابات الأيديولوجية والثقافية والسياسية، ولعل من الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين استطاعوا رصد الأوضاع السياسية في البلاد العربية وكشف الحقائق، الشاعر "صلاح الدين باوية" في دواوينه التي كشفت حالة الشعوب العربية المقهورة مع الحكام الطواغيت، من بينها قصيدة الديوان "من مذكرات حاكم عربي في طريق التوبة"، وعليه نطرح التساؤلات التالية: ما المقصود بخطاب السلطة؟ وماعلاقته بالخطاب الأدبي؟. كيف تجلى خطاب السلطة في الديوان؟. وما هي الآليات الأسلوبية التي اختارها الشاعر للتعبير عن رؤيته؟.

1–مفهوم خطاب السلطة:

اهتمت جل الدراسات النقدية والأدبية بالخطاب مصطلحا ومفهوما، وذلك على اختلاف المدارس والتوجهات والتيارات، فالخطاب لغة كما جاء في "لسان العرب" ل"ابن منظور": "الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه وخطابا وهما يتخاطبان" (منظور، 2000، صفحة 98). وهذا يعني شرط وجود طرفين وكلام موجه من أحدهما للآخر. أما اصطلاحا فهو: "كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوبا أو ملفوظا" (الرويلي و البازغي، 2005، صفحة 15). من هنا يكون الخطاب كل ملفوظ أو مكتوب موجه من طرف لآخر، يشترط فيه القصدية والفهم، ويحقق التواصل والتفاعل.

ومفهوم السلطة "بدوره ليس مفهوما خاليا من المشكلات؛ لذلك فهو يحتاج –أيضا– إلى التحليل النظري التفصيلي: فعلى سبيل المثال، كيف يرتبط ترتيل أو تنظيم محدد أو ضمير أو عنوان أو موضوع أو مفردة معجمية أو استعارة مجازية أو لون ... أو غيرها من الخصائص العلاماتية والإبداعية للخطاب" (دايك، 2014، صفحة 149). وهذا يعني أن أي نص إبداعي يتجلى فيه خطاب سلطوي موجه، يوظف آليات الهيمنة والإقناع للتأثير في القارئ وحثه على القبول والتأييد، وهو ما نلمسه في القصيدة المختارة للدراسة. حيث نجد هيمنة لضمير الأنا السلطوي في مقابل حضور خافت لضمير النحن المعارض، لكننا نتساءل مرة أخرى: ما علاقة الخطاب الأدبي بالسلطة؟. فمن المعروف أن خطاب السلطة بعيد كل البعد عن التعبير الأدبي خاصة الشعري منه، من هنا نفهم أن الشاعر يروم عن وعي

منه إلى الزج بالرؤى السياسية والأيديولوجية في نصه بطريقة شعرية، عن طريق خصائص أسلوبية جمالية، منها الضمائر والمفردات والصور والعتبات كما جاء في القوا السابق، ويهدف من ورائها الإقناع والتأثير في القارئ المتلقي لهذا الخطاب.

2–قراءة في العتبات النصية:

اهتمت الدراسات الأدبية المعاصرة بدراسة العتبات النصية، لكونها بوابة للولوج إلى أعماق النصوص، لسبر أغوارها والتمكن من فهمها ورصد مختلف الدلالات التي تروم تبليغها، فالغلاف الخارجي له "وظيفة في فهم خصوصية النص وتحديد جانب أساسي من مقاصده الدلالية" (الحجمري، 1996، صفحة 7). وغالبا ما يكون الغلاف على صلة بدلالات النص وبأنساقه الظاهرة والمضمرة، "فالغلاف ومكوناته يعد المدخل الأول لعملية القراءة" (الخطيب، 2006، صفحة 30).

وغلاف ديوان "من مذكرات حاكم عربي في طريق التوبة" له علاقة وطيدة بالنص، يفتح لنا المجال كقراء للنص باستقراء أوضاع المجتمعات العربية الأمنية والسياسية وعلاقتها بالحكام الجائرين، فقد احتوى على أيقونات سيميائية من قبيل صورة رجل يجلس مطأطأ الرأس يده على جبينه وعلى رأسه تاج ذهبي، وهي أيقونة تحيل إلى حالة الحاكم العربي النادم على جرائمه الذي يؤرقه تفكيره جراء الذنوب والمعاصي التي ارتكبها، وخلفه تنين يبث نيرانا مشتعلة تشير للوسائل المسخرة للقتل والتدمير الدائم الذي يطال الشعوب العربية المقهورة، كما نجد طفلا صغيرا تحتضنه أيادي امرأة هي في الغالب أمه وهي إشارة إلى حالة الهلع والخوف والتشريد الذي يعيشه المجتمع العربي بمختلف فئاته، وخلفه مكان خرب جراء استعمال القوة والأسلحة التي تفتك بالأرواح البريئة بسبب الحروب الأهلية التي تعيشها البلدان العربية منذ زمن طويل، ونلفي أيضا رمزا للأمل بالسلام والتغير نحو الأفضل وهي الحمامة البيضاء التي تحلق فوق الأرض الخراب لكنها تحلق بجناح ينزف دما، وكأنها إشارة إلى أن الحرية لا تؤخذ إلا بالدم. ونلاحظ أن الغلاف قد غلبت عليه السوداوية والحزن تماشيا مع طبيعة الموضوع، فاللون الأسود قد طغى على عتبة الغلاف الخارجي، و"الأسود مرتبط بفكرة الشر، فهذا يعني أنه مرتبط بكل ما يعاكس أو يؤخر مخطط التطور والتقدم الذي يريده الإله" (عبيد، 2013، صفحة 70)، وقد عبر اللون الأسود عن الشر الكامن في نفوس الحكام اتجاه شعوبهم، كما أن هذا اللون قد ورد مرتبطا بمعنى الكراهية في القرآن الكريم، ومرتبط بالحداد على الميت في الديانات الأخرى.

إذا جئنا إلى عتبة العنوان والذي "يعد العنوان نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية، تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فك شفراته الرامزة، فالعنوان بالنسبة للسيميولوجي بمثابة بؤرة ونواة للنص، فهو يمنحه الحياة والروح والمعنى النابض" (الخطيب، 2006، صفحة 32). والملاحظ أن عنوان الديوان "من مذكرات حاكم عربي في طريق

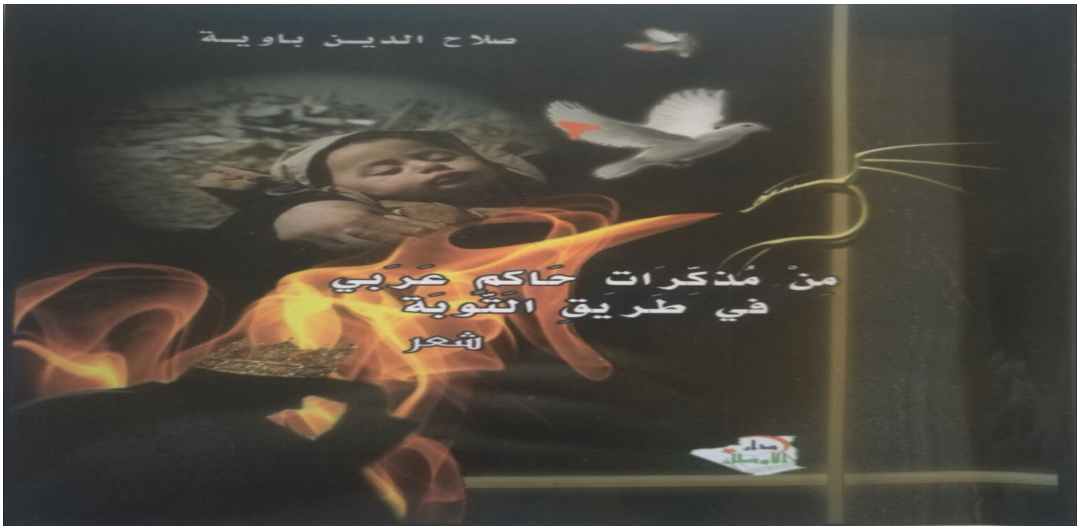
التوبة" جسد المقولة السالفة، فبعد قراءة النص نجد أن الحاكم العربي يعدد جرائمه البشعة ضد شعبه الضعيف، فقد كتب سيرة شعرية بنفحة سردية تبعث على الشعور بالمرارة والسخط. كما تطالعنا عتبة أخرى وهي "المدخل" ولها علاقة بالعنوان والمتن في آن معا، حيث يختار الشاعر البدء بالسؤال الذي يؤرقه:

"ماذا أقول؟ وذا الحجاج يرقبني أأكذب القول في شعري وأفتعل؟

حرية الفكر ما عشنا نقدسها بين العروبة حتى يشرق الأمل

الحاكم العربي اليوم طاغية يقتات بالشعب سردينا وينتعل (باوية، 2012، صفحة 5)

فكأن الشاعر ينتقل من عتبة العنوان الذي قرر من خلاله أنه سيسرد ما اقترفه الحاكم من خطايا، إلى عتبة المدخل الذي يحيل إلى صعوبة القول وتقييد حرية التعبير والفكر في العالم العربي، لأن الحاكم طاغية يبيد كل إنسان ذي فكر يهدد سلطته، وهذه الأبيات مأخوذة من ديوان "صباح الخير يا عرب" للشاعر نفسه.



3–قراءة في المتن الشعري:

تنتمي مدونة الشاعر الجزائري المعاصر "صلاح الدين باوية "من مذكرات حاكم عربي في طريق التوبة" إلى القصيدة الديوان، وهي نوع من القصائد الطويلة التي تحتل ديوانا بأكمله، وتحتوي مقاطع مرقمة وتعتمد على التكرار اللفظي والمعنوي كطاقة دلالية وصوتية، حيث أبانت عن نفس شعري طويل ومتفرد لهذا الشاعر المبدع، عالج فيها موضوعا سياسيا بتشكيلات أسلوبية فنية متميزة، وهي مقسمة إلى مقاطع شعرية تتفاوت في الطول والقصر يتحكم فيها الخيط الشعوري للشاعر والموقف الشعري أيضا، وعبر ثلاثين مقطع راح الشاعر بمقاصده الدلالية يتفيأ خطابا مركزيا سلطويا يعري متاهات السلطة ودهاليزها، لأن السلطة في أبسط تعريفاتها اللغوية والاصطلاحية، طريقة مقننة

لتولي الحاكم إدارة الرعية وشؤون الدولة، لكنها في المدونة الشعرية تعبر عن الجور والظلم والقهر، وتعرف السلطة على أنها "الحق في الأمر، فهي تستلزم أمرا ومأمورا وآمرا له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأمورا عليه واجب الطاعة للآمر وتنفيذ الأمر الموجه إليه، إنها إذن، علاقة بين طرفين متراضيين" (القرني، 2018، صفحة 389). وقد لمسنا هذا المفهوم في بداية الديوان، حيث كان الشعب خاضعا بطريقة الحكم، لكن سرعان ما تحول إلى مفهوم السيطرة، لأن الشعب لم يعد راضيا بأداء السلطة، بل أصبح معارضا لها، خاصة إذا علمنا أن "السيطرة بمعناها العام هي الإخضاع المفروض بالقوة وتسخير الأضعف لأغراض الأقوى، إنها علاقة أمر وطاعة بين طرفين متغاليين، يسعى أحدهما إلى فرض إرادته على الآخر فرضا ... ففي الأساس تختلف علاقة السيطرة عن علاقة السلطة بكونها تتحدد بالإرغام والإكراه بدلا من الرضا والإقناع" (القرني، 2018، صفحة 390). وهنا تحديدا نجد أن الشاعر واع بما يكتب فالكتابة عن وعي بما يسود المجتمع والبلاد العربية من وقائع مرّة، لا تنم إلا عن شاعر صادق الإحساس، عاش وخبر مختلف المواقف والمراحل السياسية التي عصفت بكيان الفرد والشعب العربي أجمع، ثم إن رؤية الشاعر الأيديولوجية لا تنفك تفصح عن نفسها بين ثنايا الأسطر الشعرية، خاصة عندما يعالج في المقطع الأول خطاب السلطة بضمير الأنا الذي يمثل الحاكم المتجبر الفاسد، ثم ينتقل إلى المقطع رقم عشرون للحديث عن خطاب سياسي معارض، بضمير النحن الذي يمثل الشاعر/الشعب، ليبرز بذلك تعددا صوتيا أيديولوجيا، والشاعر بذلك يستخدم بعض التشكيلات الأسلوبية لإبراز هذه الرؤى.

3-1-الأنا/السلطة:

يبدأ الشاعر قصيدته بالحديث عن الحاكم العربي الذي يمجد ذاته بضمير الأنا، وهو ما يبرز فخره بنسبه العربي وأصله الممتد في مختلف الأقطار العربية، وهو هنا لا يختلف عن الحكام الآخرين الذين ما ينفكون يتغنون بانتمائهم في نسق أشبه بالقبلية الجاهلية، يقول:

يشرفني أنا نسبي
إذا ما تسألوا عني
فإني الحاكم العربي
أنا من نسل قحطان...وعدنان...
أنا عربي (باوية، 2012، صفحة 6)

وهو ما يتيح له حكم هذه البلدان ليس بالعدل والحب، بل بالرشاش والسيف، فهذا الفخر ليس حبا بالوطن والانتماء، بل هو فخر مرضي يشير إلى التعصب والتسلط، والذي يحيل على البعد النفسي في هذا النص، ومهما تعاقب على كرسي الحكم أسماء مختلفة فالطريقة نفسها لا تتغير، يقول:

أنا اسمي تارة عيسى
أنا اسمي تارة موسى
أنا اسمي تارة حاتم

أدير الدولة العليا

بحدّ السيف...

والرشاش... (باوية، 2012، صفحة 8)

وهذه الطريقة في الحكم تضمن استمرار نسل الحكام على كرسي السلطة بالوراثة من جيل لآخر، دون أي اعتبار لتعاليم الدين الحنيف بضرورة ووجوب التشاور وتسليم الحكم للشخص المختار من الشعب، يقول:

فمن صغري

ورثت الحكم...

من جدّ إلى جدّ

-ويبقى الحكم-

من قبلي

إلى ابني دونما كدّ (باوية، 2012، صفحة 13)

لا بل يتمادى في طرق التعذيب والتجويع حتى نصب نفسه ربّا على الشعب، لكنه ربّ بالمعنى السلبي، ظالم وغير عادل ويتفنن بأنواع السرقة والجور !، وذلك في ظل غياب الوعي السياسي من الشعوب الراضخة والقابلة للخضوع والذل والهوان، فنراه يعامل شعبه بتعال وكأنهم قطيع خرفان، لا بل يسخر منهم ويستهزئ بكرامتهم كبشر. وهكذا عبر طول المقاطع الشعرية يردد الحاكم الجائر جرائمه البشعة في حق رعيته المقهورة، بصورة تجعل القارئ يشعر بالسخط والمرارة ويغوص داخل أعماق نفسية وعقلية الحاكم العربي، الذي يتغنى بثرواته وقصوره وسياسته التي تضمن له طول الحكم أبد الدّهر، حتى أننا نلمس ذلك البعد النفسي بين ثنايا الأسطر الشعرية، الذي ينبئ عن حالة نفسية مرضية يعيشها هذا الحاكم، ومن خلالها ندرك مدى تفاهة الفكر لدى الحاكم العربي، فكأنه لا همّ له سوى الشهرة والمتعة مع ما ينبغي له أن يتحلى به من حكمة ورزانة لإدارة شؤون رعيته، وفي المقابل يبيد كل ذي فكر وعلم لأنه يشكل مصدر تهديد وخطر على حكمه الأبدي، فنراه يعترف:

ويرعبني أنا شعبي إذا فكر

إذا قدر

ويذبحني إذا عن فكره عبر

فإن الفكر بالعصيان...

والثورات كم بشر

أجر جميع من قرؤوا

ومن درسوا...

ومن علموا... ومن فهموا

إلى المخفر

إلى السجن...

إلى الزنزانة الأكبر (باوية، 2012، الصفحات 31-32)

والحديث يطول إذا ما تتبعنا جميع مقاطع القصـــيدة التي تنبئ بمرارة منقطعة النظير، عن تلك المآســـي التي يتعرض لها الشعب العربي برمته، ونحن نتتبع خيوط هذا النسيج الشعري ونستقرؤه نلمس خطابا سلطويا مركزيا، وهو ما تحقق بصفة عامة في مضمون القصيدة، وكيف لا والشاعر يروم تعرية وفضح هذا الخطاب السلطوي المهيمن، وتكسير طابو السياسة في الشعر الجزائري المعاصر، فهو نسق سياسيي دلالي معلن عنه وليس مضمرا، مع مواقف الرفض والاحتجاج التي تصدر عن رأي سياسي مخالف.

3-2-النحن/الشعب:

الشاعر في هذه القصيدة يبين الواقع الكائن من منظور مغاير، هو رؤية الشعب الرافض الساخط على هذا الوضع، متيحا للقارئ بذلك الفرصة لتبني الموقف الذي يريد، وهذا من مميزات الخطاب السياسي في الشعر المعاصر، فعلى الرغم من سيطرة صوت الحاكم على القصيدة، إلا أن صوت الشعب الرافض يتجلى فيما بعد، يقول:

أكاذيب هو الوطن

وقلنا نحن نفديه...

نراعيه

وفي الجلّى نلبيه

ولكن بعد صحوتنا

تراءى أنه العفن (باوية، 2012، الصفحات 43-44)

بهذه الأسطر يشخص الشاعر الأزمة التي تلاحق الشعوب العربية، ينبش جراحا عميقة في قلوبهم فمنذ أن كانوا يؤمنون بالوطن والوطنية المثلى، ســرعان ما انهارت هذه القيم وصــارت أضــحوكة وهذيانا، وتصــبح مدعاة للتساؤل:

أهذه أمة الإيمان...؟

والإسلام...؟

والرحمة؟

أهذه أمة التقوى؟

أهذه أمة النعمة؟ (باوية، 2012، صفحة 46)

وهنا تحديدا نلمس نوعا من الحسرة والتأسف على الوضع الكائن، إلى جانب السخط الذي قد يشعر به أي فرد مقهور. ويجسد هذا الخطاب استجابة للواقع والمطالب المفعمة بالحرية واستجلاء الحقيقة، وقد انبرى الشاعر المعاصر يصور بألم وحسرة المعطيات السائدة، وتحليلها وتعريتها للرأي العام.

3-3-خرق أفق التوقع:

تعد آلية أفق التوقع من المفاهيم التي تقوم عليها جمالية التلقي لدى القارئ، فهو "يمثل الفضاء الذي تتم من خلاله عملية بناء المعنى" (صالح، 2001، صفحة 45)، وفي نهاية الديوان يتبدّى لنا أن الحاكم قد أصابه الندم على ما يقترفه من جرائم ويريد التوبة، وأن هناك أملا في التغيير نحو الأفضل للشعوب المستضعفة، لكن سرعان ما يحدث نوع من خرق لأفق توقع القارئ، وذلك عندما يتراجع الحاكم عن ذلك ويقرر الاستمرار والتمادي في الاستبداد، يقول:

أنا يا ربّ قد تبت
وأنت الواحد الغفار
كم ذا آه .. أذنبت
فوا أسفاه ما كسبت
يدايا...كم تجبّرت (باوية، 2012، صفحة 63)

إلى أن يصل الشاعر إلى قوله:

وكيف أتوب عن شعبي؟
عن ظلمي
وعن جرمي
وعدواني
وعن ذنبي؟
فإجرامي ضروري
كمثل الماء للعشب
محال أن أتوب أنا
عن التنكيل بالشعب
عن التجويع...
والتعذيب...
والترهيب...
محال أن أكون أنا
صديق الحب والشعب (باوية، 2012، الصفحات 65-66)

إلى هنا تنتهي القصيدة في سوداوية ومأساوية منقطعة النظير، وهي رؤيا واستشراف ما هو ممكن من الشاعر للأوضاع المزرية التي تعيشها الشعوب العربية منذ سنوات طويلة، ونستطيع القول أن القصيدة إعادة لتشكيل الواقع الكائن، بحثا عن تجارب حياتية تتسم بالإنطلاق والحرية.

4-الآليات الأسلوبية:

4-1-الرمز:

يعتبر استخدام الرمز في الشعر العربي المعاصر من وسائل التعبير عن الدلالات غير المباشرة، فالشاعر قد يلجأ إلى موارية المعنى الأصلي و التلميح إليه برمز من الرموز الأدبية أو التاريخية أو الأسطورية أو الدينية، وللرمز معاني ظاهرية مكشوفة وأخرى باطنية مضمرة، والقصيدة التي بين أيدينا قد وظف فيها الشاعر رموزا أدبية وأخرى تاريخية إلى جانب الرموز الدينية أيضا، ليعبر عن موقف الحاكم وموقفه أيضا، فنجده يوظف رموزا دينية من قبيل "المهدي المنتظر"، فيقول:

جماهيري تسميني

فتى التمثيل والطّرب

وتدعوني:

أنا- المهدي- للعرب (باوية، 2012، صفحة 28)

فعلى الرغم من التنكيل الذي يمارسه الحاكم بشعبه، وعلى الرغم من وعي الشعب لذلك إلا أنه يتوسم فيه خيرا بكل سذاجة، ويعتبره المهدي المخلص له من الظلم وتحقيق العدل الذي لن يتحقق لأن لا شبه بين الحاكم والمهدي، ويردف ذلك بوصف نفسه بالكذب والشجاعة المزيفة بكل بجاحة، يقول:

وأشعر دائما أنّي

-مسيلمة- أنا أدعى

وعنترة من الخشب. (باوية، 2012، صفحة 28)

ونجد هنا رموزا أخرى وهي رموز أدبية شعبية، دأب العرب على استخدامها للتعبير عن الكذب كرمز "مسيلمة الكذاب"، وهو الحاكم يعترف بنفسه أنه يمارس كل أنواع الكذب على شعبه، كما أن خصال عنترة من الشجاعة والمروءة والوفاء لا تنطبق عليه أبدا فخصاله من خشب وليست من ذهب. في حين نجد رموزا أخرى كالرمز التاريخي مجسدا في شخصية "صلاح الدين الأيوبي" محرر القدس من الصهاينة، "فالشاعر يختار من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد أن ينقلها إلى المتلقي" (زايد، 2006، صفحة 120)، والشاعر قد استدعى هذه الشخصية كنوع من الاستنجاد بأمجاد الماضي وإنجازاته العظيمة، فيبكي حالنا وحال القدس في ظل تقاعس الحكام وخيانتهم لمبادئ الدين الإسلامي، يقول:

أضعناها فلسطينا

أضعناها..

فلم تفلح مساعينا

وكم خابت أمانينا

صلاح الدين خنّاه

ودسنا عن مبادينا (باوية، 2012، صفحة 49)

وليست هذه الرموز فقط بل هناك رموز استخدمها الشاعر ليبرز بشاعة وقسوة الحكام العرب، فيعري سياستهم وسوء استخدامهم للسلطة ضد الشعب الأعزل، بصورة دموية لم يسبق إليها أحد من الحكام عبر التاريخ، يقول:

فكل الناس في نظري سواسية
أمام السيف والسيّاف كالبقر
أنا في القتل هولاكو...
أنا الحجاج كل الخلق...
كالأغنام في نظري (باوية، 2012، صفحة 21)

أمام هذه الأسطر يحس القارئ أنها كتبت بدم الشعب البريء، ومن هنا استطاع الرمز واستدعاء الشخصيات أن يعبر عن التجربة الشعرية ويزيح الغموض عن دلالات القصيدة، فتشبيه الحاكم ب"مسيلمة" و"هولاكو" و"الحجاج" قد أضفى بعدا جماليا على النص، واستطاع أن يشحن هذه الرموز بما يتوافق مع التجربة الشعرية والموقف الأيديولوجي للشاعر، فالحجاج رمز للاستبداد والقيادة والتسلط، ومسيلمة رمز للكذب والخداع، كما أن "هولاكو" رمز الدموية بلا رحمة أو شفقة، فنرى الشاعر يستدعي شخصيات كثيرة مختلفة الدلالات ليس بسبب ترف فني وفكري، بل هي ضرورة لإكساب النص قيمة شعرية دلالية وجمالية.

4-2-السرد:

لقد شاع في الشعر العربي المعاصر استحداث تقنيات وخصائص أسلوبية من شأنها أن تشكل شعرية النص الأدبي، ومن بينها تداخل بعض الأجناس فيما بينها حيث يصبح القارئ أمام نص مفتوح أجناسيا يستعصي معه على التصنيف، ولعل القصيدة التي أمامنا قد لامست جنسا أدبيا مغايرا عن الشعر وهو السرد، حيث تحضر في معماريته مكونات بنائية وفنية سردية، فالنص الشعري المعاصر أصبح نصا جامعا للنصوص الأخرى، ومفتوحا يعيد بناء وتشكيل نفسه باستمرار، فيستحدث شكلا جديدا يتسم بالتشظي والاستعارة من نصوص أخرى. وهنا يسرد الشاعر على لسان الحاكم:

فمن صغري
ورثت الحكم...
من جدّ إلى جدّ
-ويبقى الحكم-
من قبلي
إلى ابني دونما كدّ (باوية، 2012، صفحة 13)

نستقرئ أثناء قراءتنا للقصيدة أن الشاعر يسرد حكاية حاكم مع شعبه، ويستحضر مشاهد درامية مأساوية، دون أن يفقد النص شعريته ومعماريته وإيقاعه، بل يضفي أبعادا دلالية وسمات جمالية أخرى، فمنذ بداية القصيدة

إلى نهايتها نجد الشاعر يسرد ما يشبه سيرة ذاتية لحاكم عربي مع رعيته، ولعل العنوان خير دليل على ذلك، "من مذكرات حاكم عربي في طريق التوبة"، فنشعر منذ الوهلة الأولى أننا أمام اعترافات سيرية سردية، كما أن استخدام ضمير الأنا ساعد على تعميق حضور النسق السردي في القصيدة، وهو بدون شك استجابة للتغيرات الحاصلة على مستوى النصوص الأكثر حداثة، والتي تتفيأ انطلاقا غير مشروط في فضاء التخييل.

4-3-الفضاء الطباعي:

يعتبر الفضاء الطباعي أو تقنية البياض والسواد في النص الشعري المعاصر، من أبرز التشكيلات البصرية التي تساعد على إشراك القارئ في عملية القراءة وإنتاج الدلالة، فهي من العتبات التي تمنح مساحة للتأويل وإعادة القراءة، وهو "كل ما يمنحه النص للرؤية، سواء أكانت الرؤية على مستوى البصر/العين المجردة، أم على مستوى البصيرة/الخيال" (الصفراني، 2008، صفحة 18). والقصيدة تعتمد على هذا التشكيل كإحدى وسائل التدليل في النص، فهي موزعة عبر ثلاثين مقطعا تتفاوت في الطول والقصر حسب الدفقة الشعورية والخيط الشعوري النفسي للشاعر، مع استخدام علامات الترقيم المختلفة مثل ثلاث نقاط (...) وسط البيت الشعري الدالة على الحذف المعنوي أو اللفظي، كقوله:

وإن الفكر للإنسان...
أمر كله منكر
وشيء...أخطر...أخطر (باوية، 2012، صفحة 31)

ويروم هنا إلى إدراج ثلاث نقاط في السطر الأخير إلى دعوة القارئ، لملئ البيت بالمعنى الذي يرغب، ولاشك أنه يقصد أن الفكر والعلم يشكل بؤرة تهديد لكيان الحاكم وسلطته، لذلك يلجأ إلى قمع العلماء والمفكرين، يقول:

أحاول جاهدا دوما
بأن ألغي هنا الأقلام...
والطبشور ...المئزر
وأفني ها هنا الشعراء...
والكتاب...
والفكر الذي يبحر (باوية، 2012، صفحة 31)

ونجد أيضا الثلاث نقاط في آخر كل سطر تدل على الاستمرارية، أي استمرار التعسف وسياسة الاستبداد، أما النقطتان (..) فتدلان على الغموض والقلق والحيرة، ذلك أن الشاعر نفسه لا يدري ما يقول بعد أمام تزاحم المشاهد الشعرية التي تجول بأعماق نفسه وعقله. ولاشك أن هذا التوزيع البصري للأسطر الشعرية، وعلامات الترقيم لم يكن اعتباطيا من طرف الشاعر، بل كانت دوالا ذات مقاصد دلالية وجمالية.

كما نجد العديد من التساؤلات التي تعتبر دوالا سيميائية تحتاج إلى تأويل، أو محاولة للإجابة عن تساؤلات تؤرق الشاعر والقارئ معا، من قبيل:

أهذي أمة الإيمان...؟

والإسلام...؟

والرحمة؟

أهذي أمة التقوى؟

أهذي أمة النعمة؟ (باوية، 2012، صفحة 46)

وهي تساؤلات تدل على الحيرة والاضطراب والرفض، تحتاج إجابات من الحاكم والشعب والقارئ، يتساءل عن مستقبل هذه الأمة وعن ذاته وهويته.

4-4-التكرار:

إلى جانب شيوع صيغ الاستفهام نجد خاصية التكرار اللفظي والمعنوي، وتعتبر خاصية التكرار من بين الأساليب التي يلجأ إليها المبدع ليؤكد على دلالة معينة، يريد لها أن تبرز دون سواها، ولمسنا من خلال قراءتنا للقصيدة أن الشاعر قد اعتمد على طاقة التكرار الصوتية والدلالية بشكل كبير، خاصة ضمير الأنا الذي سيطر على الأسطر الشعرية من بدايتها إلى نهايتها، وهذا مثال عن التكرار اللفظي الذي يهدف من خلاله الشاعر التأكيد على حقيقة مرّة:

أكاذيب

أكاذيب

أكاذيب

هو الوطن (باوية، 2012، صفحة 45)

فلفظة "أكاذيب" مكررة ثلاث مرات جاءت لتدل على أن الشاعر يعيش كذبة، واستمرار الكذب والنفاق في الوطن العربي كله، وقد أضفت طاقة صوتية مميزة على القطعة الشعرية. وبهذه اللغة الشعرية الراقية، وبهذه الأساليب الشعرية الجمالية، استطاع الشاعر "صلاح الدين باوية" أن يصور الموقف الشعري الجريء، ويرصد التجربة الشعرية المتفردة، ولاشك أن القصيدة تعتبر نصا خصبا للدراسة والنقد، فهي تعج بحمولات أيديولوجية وفكرية كما بكثافة دلالية، رسمت خطابا سياسيا واقعيا معاشا، يأمل معه القارئ أن يتغير يوما ما.

خاتمة:

ختاما لهذه الورقة البحثية التي عالجت خطاب السلطة، في ديوان "من مذكرات حاكم عربي في طريق التوبة" للشاعر الجزائري المعاصر "صلاح الدين باوية"، من الناحية الموضوعاتية والفنية توصلنا إلى النتائج التالية:

*وجدنا أن الشاعر كان واعيا بما يكتبه وصادقا في تقديم رؤيته، فقد وجه خطابا سياسيا مقصودا، كشف فيه عن رأي الحاكم /السلطة بنفسه وبشعبه.

*لقد كانت العتبات خاصة الغلاف والعنوان مرتبطة بدلالات النص.

*كان في مقابل صوت الحاكم صوت الشعب المغلوب على أمره الذي برز بضمير النحن، حيث كشف عن موقفه الفكري.

*مع رأي الشاعر الذي يمثل رأي الفئة المثقفة المضطهدة، والمقموعة عن اسماع صوتها.

*ومن المؤكد أن كل الخصائص الأسلوبية المذكورة التي استخدمها الشاعر وغيرها، ساهمت في تعميق الخطاب السياسي السلطوي داخل جسد النص الشعري، وساهمت بالسماح للقارئ في الاقتراب من مفاصل هذا النص الشعري الجريء، واكتشاف الطرق التي تساعد على انبثاق الدلالة وجمالية الأسلوب في النص الشعري الجزائري المعاصر.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الحجمري عبد الفتاح .(1996) .عتبات النص البنية والدلالة .المغرب :منشورات الرابطة.
2. الخطيب عبد الله عمر محمد .(2006) .النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار .الأردن.
3. الرويلي ميجان، والبازغي سعد .(2005) .دليل الناقد الأدبي .بيروت :المركز الثقافي العربي.
4. الصفراني محمد .(2008) .التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث .المغرب :المركز الثقافي العربي.
5. القرني متعب .(2018) .أقطاب الفكر العربي 1918م-2018م .المملكة العربية السعودية :دار مدارك للنشر.
6. باوية صلاح الدين .(2012) . .من مذكرات حاكم عربي في طريق التوبة .الجزائر :دار الأوطان للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
7. دايك توين فاين .(2014) .الخطاب والسلطة .القاهرة :المركز القومي للترجمة.
8. زايد علي عشري .(2006) .استدعاء الشخصيات التراثية .مصر :دار غريب للطباعة والنشر.
9. صالح بشرى موسى .(2001) .نظرية التلقي أصول وتطبيقات .المركز الثقافي العربي :المغرب.
10. عبيد كلود .(2013) .الألوان، دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، دلالتها .لبنان :المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
11. منظور جمال الدين .(2000) .لسان العرب .لبنان :دار صادر للطباعة والنشر.